الفصل الرابع

(الهروب)

"شكرات تخرج من البيت في غفلة من أهلها؛ حتى لا يشعر بها أحد، فكانت حريصة ألا يراها أحد، وبالفعل استطاعت أن تختفي من البلد نهائيًا، كأن الأرض انشقت وابتلعتها".

"شكرات" تخرج من البيت في غفلة من أهلها؛ حتى لا يشعر بها أحد، وكانت حريصة أيضًا ألا يراها أحد وهي تسير في الطريق ، ثم اختفت من البلد نهائيًا، ولم تذهب أو تحاول الاتصال بـ "ماضي"؛ مخافة أن يصيبه أذى من أهلها.

ذهبت "شكرات" إلى محطة مصر، وهى لا تدري إلى أين ستذهب.

بعد عودة "عودة" من مقابلة أخيه يكتشف هروب "شكرات" من البيت، كل أفراد الأسرة وأخوه والأصدقاء المقربون فقط يبحثون عنها في كل مكان.

"ماضي" لا يعلم شيئًا عن هروب "شكرات"، فهو أيضًا كان تحت نظرهم كل دقيقة ليلًا ونهارًا، وكل أفراد أسرته، حتى صديقه الوحيد "فؤاد" لم يفلت من تحت نظرهم؛ لأنهم علموا أنه هو الصديق الوحيد له، ومن المحتمل أن يكون قد ساعده في قصة هروبها.

لقد مر على اختفاء "شكرات" أكثر من أسبوع، وهم مستمرون في البحث في كل مكان، ولا أحد يعلم خارج أسرة "عودة" والمقربين له عن اختفائها أي شيء، حتى ابنة

خالتها "نوسة" لا تعلم أي شيء عنها رغم أنها سرها الأمين.

_ فات أسبوع يا عمي مش هانروح نجسّ نبض أبو شكرات ونطلبها منه زي ما قال؟

* انت بتصدق إنه ممكن يحط يده في يدنا؟ دا مش بعيد إنه هايموتها أو فعلًا موتها خلاص.

– موتها؟! مش ممكن! نفترض إنها غلطت، ليه يبقى علاج الغلط بغلط أشد منه؟ فيه طرق تانية للعقاب غير القتل، لو نفد من عقاب القانون فيه عقاب تاني أشد وأقوى، عقاب ربنا.

* اصبر يا ماضي، بكرة نشوف الدنيا فيها إيه!

_ أنا حتى يا عمي عيني مالمحتهاش خالص من يوم ما جبتهالك علشان تودّيها لأبوها.

"هكذا دار الحوار بمشاعر الفزع والقلق والخوف بين "ماضي"، وعمه "كامل"

- بص يا عودة يا خوي، لازم الناس كليّاتها تعرف إن شكرات كانت مسافرة عندينا في بلدنا في الصعيد علشان تزور عمتها

نوارة، علشان عمتها كانت متوحشاها، وهناك عربية دهستها وماتت، واندفنت في مقابر العيلة في الصعيد.

"كانت نصيحة من "عيّاد" لإنقاذ "عودة" من هذا الموقف"

"كامل" لا يهدأ له بال، فكان يتحسس الأخبار دائمًا من بعيد لبعيد، ويسأل خفية؛ ليعرف أي شيء عن "شكرات"،

فالبعض يقول له:

= ماتت في حادثه عربية في الصعيد.

والبعض الآخر:

قتلوها ومش عايزين حد يعرف علشان البوليس مايشمش خبر.

وهنا يعود "ماضي" من الماضي إلى الحاضر وهو يردد:

- حادثة! قتلوها! حادثة! قتلوها، يااه معقولة!! ياحبيبتى يا شكرات، ربنا وحده بس اللي يعلم انتي مصيرك بقى إيه.

"ماضي" ينظر في ساعته، ويأخذ سيارته ويسير بها مسرعًا؛ لأنه هامَ وقتًا كبيرًا في الذكريات التي مضت منذ عهد بعيد، وصل المحل وهناك العامل المسئول

عن البوفيه والمكتب الخاص به:

_ أستاذ ماضي، المدام اتصلت بحضرتك أكثر من مرة، وقالت لما حضرتك توصل المحل تتصل بيها ضروري.

"متصلًا بميرفت":

* كنت فين وسايبنى آكل في بعضي يا بيه؟! حتى ما اعرفش انت مشيت من البيت ليه؟

ورحت فين؟! وليه مش في المحل كل ده؟!

- خلّصتي كلامك؟ كنت مكان ما كنت، مش كل شويه حرقة دم انتِ إيه؟!

مابتزهقيش يا شيخة؟ حرام عليكِ كده، أنا بس متحمل علشان خاطر العيال مايتبهدلوش بيني وبينك.

* أنا هاسيب لك البيت، وهاروح أقعد عند أهلي أرتاح شوية، وابقى ربيهم لوحدك أما اشوف بقى هاتعرف تقعد بيهم ازاي؟

"ماضي" بعد المكالمة الهاتفية مع "ميرفت"، جلس في المحل يفكّر، ثم قرر بعد الانتهاء من العمل في المحل يذهب لبيت حماه؛ لكي يصالح "ميرفت" زوجته لتعود إلى البيت،

لأن الأبناء ليس لهم أي ذنب في أي شيء، وهم ما زالوا صغارًا، وأيضًا بينهم بنت في البيت، ولا بد من وجود الأم، وأيضًا لكي يركز في عمله، فهو إن كان عليه سيعتبرها غير موجودة في حياته، وسيحاول أن يأخذها على قدر عقلها، هذا كان كل تفكيره وهو ذاهب إلى بيت حماه، ولأن عقلة كان مشغولًا ويفكر في هذه المشكلة التي حدثت بينه وبين زوجته، وأيضًا صورة "شكرات" وسيرتها لم تفارق خياله ولا عقله.

في الشارع المؤدي إلى بيت حماه، لمح "ماضي" -عن بعد- امرأة تريد عبور الطريق وهي تجري بسرعة، ولم تهتم وهي تعبر الطريق، فضغط على مكابح السيارة فجأة؛ فخلفت على إثرها صوتًا شديدًا، هذا الصوت أرعب هذه المرأة؛ فسقطت على الأرض، فنزل "ماضي" من السيارة مسرعًا يحاول الاطمئنان عليها ويأخذ يدها ليساعدها أن تقف على قدميها

_ مين؟ ماضي؟!

* مين؟ نوسة؟!

_ أيوه.

* انتِ لسّه فاكراني بعد السنين دي كلها؟

_ طبعًا ومتابعة أخبارك العمر ده كله.

* قولي لي انتِ رايحة فين كدا؟ وليه كنتِ بتعدّي الشارع وانتِ مش واخده بالك من الطريق؟

_ دي حكاية طويلة هاقول لك عليها بعدين، لما الظروف تسمح.

* طيب ممكن أوصلك الأول ونتكلم واحنا ماشيين بالعربية؟ ها انتِ رايحة فين؟

_ عامل إيه يا ماضي مع مراتك.

* مين؟ شكرات؟!

_ هي اسمها شكرات؟!

* آآآآآآه، لأ، احكي لي كنتِ بتقولي دي حكاية طويلة وهابقى أحكي لك عليها بعدين لما الظروف تسمح.

_ أيوه أيوه، قصدي الحكاية كلها، أقصد يعني حكايتنا كلنا.

* امممممممم، ماشي ماشي، مش وقته، بس انتِ ليه كنتِ نازلة بتجري كدا وبتعدّي الشارع؟ أقصد إن الشارع كانت فيه عربيات كتيرة رايحة جاية، بجد كان فى إيه؟

إحنا معرفة قديمة من أيام الـ .....

_ قصدك شكرات، طبعًا طبعًا معرفة قديمة قوي.

"متأثرًا":

* الله يرحم م م م م

_ الله يرحمنا جميعًا حيين وميتين، الرحمة تجوز على الحي والميّت.

* اللهم آمين يارب العالمين، برضه مش عايزة تقولي كنتِ نازلة الشارع بتجري ليه؟

_ ظروف الحياة والناس.

* الحياة فعلًا صعبة، والناس أصعب.

_ والأصعب الخيانة!

* الخيانة؟!

_ ياريت تنزّلني، علشان أنا ساكنة قريب من هنا.

* بس انتي ماقلتيش حاجة عن جملة حكايتنا كلنا دي معناها إيه؟ أكيد عندك كلام وأنا حاسس إن فيه شيء عايزة تقولي لي عليه، ومش عارفة تبدأي منين!

_ أنا مش هاعطّلك أنا هابقى آخد رقم تليفونك من على

المحل وأكيد هاكلمك.

* انتِ عارفة المحل بتاعي؟

_ مش باقول لك أنا متابعة أخبارك كلها؟

* أخباري كلها! اممم، أخباري أنا!!!

- وأكيد هانتكلم تاني قريب.

"ماضي" يتوقف قليلًا بالسيارة، يفكر في جملة: (حكايتنا كلنا)، ثم يكمل طريقه عائدًا لمصالحة "ميرفت"، وإحضارها من منزل أبيها.

"ميرفت" تعود مع "ماضي" إلى منزلها، وتعود الحياة إلى طبيعتها وبكل ظروفها ومشاكلها كما كانت من ذي قبل.

وتمر الأيام، وتتوالى الأحداث، وفي يوم يرن جرس هاتف "ماضي" المحمول وهو في المحل، وكان الرقم غريبًا:

_ ألو! مين معايا؟

* أنا نوسة

_ أهلًا وسهلًا، أخبارك إيه؟

* الحمد لله على كل حال.

_ الحمد لله.

* مش هاطوّل عليك، انت عارف الشجرة اللي كنت أنت وشكرات بتقعدوا تحتها زمان؟

_ طبعًا فاكرها.

* طيب ممكن يوم الجمعة الساعة ٩ الصبح تقابلني هناك؟

_ حاضر

* طيب سلام بقى، أوعى تنسى أوعى يا ماضي.

"ماضي" يفكر بعد المكالمة الهاتفية مع "نوسة":

_ (يا ترى المقابلة دي علشان إيه؟! عايزة تقول لي إيه؟ ويا ترى نتيجتها هاتكون إيه؟ ويا ترى ليه قالت لي تحت الشجرة اللي كنا بنقعد تحتها زمان أنا وشكرات؟!)

الكثير من التساؤلات تدور في رأس "ماضي".

"ماضي" يأخذ سيارته ويتجه إلى المكان الذي توجد فيه الشجرة، وركن سيارته بالقرب من هذا المكان، ونزل من السيارة وهو ينظر في ساعته، فوجد الساعة التاسعة إلا دقيقتين، وظل يتقدم نحو الشجرة، ويتقدم وهو مترقب كل شيء، وينظر في حذر إلى ذلك المكان، فوجد هناك امرأة كانت منتقبة تقف تحت الشجرة، ولكن على يمين الحجر المتواجد تحت الشجرة، فجلس على هذا الحجر، وجعل ظهره

إلى هذه المرأة، ينتظر وصول "نوسة" حسب الميعاد المتفق عليه، ولكنه فوجيء بصوت المرأة التي يعطيها ظهره تحدثه:

- إزيك يا ماضي؟

"فيلتفت "ماضي" إليها، لتحدثه:

- إيه يا ماضي؟ مش عارف صوتي؟ مش عارف صوت مين اللي بيكلمك؟!

"ماضي" يستمع وينظر إليها في دهشة شديدة، ويحدث نفسه:

(مين الست دي اللي تعرف اسمي؟ وليه جاية تكلمني في المكان دا بالذات؟

- الست اللي انت مستنيها يا ماضي مش هاتيجي؛ علشان أنا جيت مكانها.

* وازاي عرفتِ إني مستني واحدة؟ وليه جيتي انتي مكانها؟

- علشان نوسة حددت المعاد والمكان هنا بناءً على اتفاقي معاها، أنا من فترة يا ماضي وأنا بافكر إني أقابلك، بس كنت خايفة من المقابلة دي، وما عارفاش تأثيره علينا هايكون إيه؟!

* لا مش معقول؟! وتختار الميعاد ويكون هنا تحت الشجرة دي بالذات! لا لا مش ممكن، مش ممكن اللي بيدور في

دمـاغي دا! مسـتحيل، لا لا مسـتحيل، اللـي مـات مـش ممكـن يرجع تاني، مش ممكن!

- أنا الماضي يا ماضي، أنـا شكرات حبيبتك، أنـا مـامُتّش زي معظم النـاس ماهي فـاكرة، دي حكايـة طويلـة قـوي يـا مـاضـي، سنين وأنـا عايشـة بعيد، عايشـة بعيد عن أهلـي، بعيد عنـك، بعيد عن روحي.

* ازاي كنتِ عايشة؟ دي نـاس قالـت فعلاً إنـك مُتِ فـي حادثـة عربية، ونـاس تانيـة قالـت إن أهلهـا قتلوهـا ومـداريين علشـان البوليس ما يشمّش خبر، مش ممكن، لا لا طيب كنـتِ عايشـة فين؟ وازاي؟

- أنـا هاحكي لك كل حاجة يا ماضي.

* يااااااااااااه! مش ممكن! أنـا مش مصدق عينيّا.

- فاكر يوم عمك كامل ما ودّاني عند أبويا؟

* أيوه أيوه فاكر طبعًا.

- أنـا في اليوم ده حسّيت بحاجة غريبة، حسيت إن ممكن فعلًا أتقتل، شوفت نظرات غريبة من أبويا؛ لأنه نبّه بشدّة على كل اللي في الدار إني ماشوفش الشـارع خـالص لحد مـا يتصرف

فـي موضـوعي، فهمـت سـاعتها إنــه ممكـن فعـلًا يقتلنــي، وحسّيت كمـان وقتهـا إن وأنـا فـي بيـت أبويـا إنسـانة غريبـة، فانتهزت فرصة إن أبويا راح يقابل عمي عيّاد...

* آه وبعدين؟

- أنا إدّعيت إني تعبانة ومرهقة قوي، فدخلت أوضتي ونمت، وأختي جات بعد شويه لقتني رُحت في النوم، راحت هي كمان نايمـة، وفـي نـص الليـل حسّيت إن أمـي دخلـت عليّـا الأوضـة، عملت نفسي رايحة قوي في النـوم، حسيت إنهـا كانـت عـايزة تـتكلم معايـا؛ لإنـي سـمعتها وهـي بتقـول الصـباح ربـاح بقـى، ودخلت نـامت، اتأكدت إن البيت كله نام، بقيت كل شوية عينيـا علـى الشـبّاك اللـي بيطـل علـى الشـارع؛ علشـان أتـابع رجـوع أبويا من عند عمي، دخلت الأوضة بتاعتـه اللـي فيهـا الأوراق أخـدت كـل الأوراق اللـي ممكـن تكـون خاصـة بيّـا، وكنـت فـي اليـوم ده انـت مـدّيني فلـوس، خرجـت بـدون ماحـد يحـس بيّـا، حتـى وأنـا فـي الشـارع بقيـت أبـص لا يكـون حـد صـاحي مـن الجيران وشايفني، وركبت تاكسي وصلني لحد محطة مصر.